

وكان معلمنا شيخا مهيبا يروي لنا تلك الحكايات بالتجلة والاحترام ، ولا يفتر عن عبارات الحمد والتسبيح كلما جاء على ذكر المدينة ، وأحداثها ، ومقابرها ، وأكابر الصحابة الذين دفنوا بها ، والملوك والامراء الذين بنوا فيها المدارس والرباطات والمستشفيات والاقواف الخيرية .

وازددت حبا بالقدس الشريف ، فلم تعد عندي عاصمة لفلسطين فحسب ، ولكنها أصبحت ديننا وحضارة ، وتجسيدا حيا لتاريخ العروبة والاسلام . ولكن حبي أصبح هياما وغراما في أيام الاسراء والمعراج ، وفي المسجد الجامع المعروف بجامع الجزائر ، أحد ولائها الطغاة .

وكان مفتي عكا وقاضيها ، الشيخ عبدالله الجزار ، ولا صلة له بالحاكم الجزار ، عالما جليلا مهابا ، ربي جيلا من العلماء في عكا ، واشتهر بالتقوى والورع ، وكان الناس يتهافتون على يده يقبلونها منى وثلاث ، وهو يسير من المسجد الى داره ، والناس من حوله في موكب فخيم .

وقبل صلاة الجمعة ، كان الشيخ الجزار يجلس على مصطبة دكان كبير ، يملكه احد وجهاء النصارى اسمه « الخواجه » عيسى العيسى ، فيقبل عليه الفلاحون القادمون من قراهم للصلاة والتجارة ، ويتزاحمون عليه يلثمون يده ، وينتضي الوقت وصاحب الدكان لا يبيع من بضاعته شيئا ، وهو يتهلل بشرا ان بركة المفتي قد حلت على دكانه في ذلك اليوم السعيد . بركة فقط ، من غير ربح ولا تجارة !!

وفي يوم الاسراء والمعراج كان الشيخ الجزار يتولى تلاوة « القصة » بصوته العذب الخشوع . ولم يكن يسمح لغيره من العلماء ان يتلوها نيابة عنه ، فقد أصبح ذلك الواجب جزءا من حياته ، يمنحه سرورا داغقا وسعادة عظيما ، ويبدو كأنه في مطلع الشباب .

وكان في ذلك اليوم نسارع الى المسجد ونزاحم في الصفوف ، حتى نجد مكانا قريبا من الشيخ الجزار لننعم بصوته الشجي ووجهه النهي . وكان يحمل على كتفيه وجهها ناصعا مشربا بالحمر ، يجلله شيب نقي ، وفوق ذلك كله عمامة بيضاء كأنها هالة من نور . وهكذا كان يبدو لنا . وما ضر أن يكون الخيال احسن من الحقيقة ، ما دام يبعث في نفوسنا الرضا والسرور .

وتشرئب الاعناق ، ويسود المسجد هدوء وخشوع ، ويبدأ الشيخ الجزار تلاوة قصة المعراج ، من كتاب امامه . انه يقينا يحفظها عن ظهر قلب ، ولكنه يصر ان يتلوها من الكتاب بين يديه . فان الكتاب طاهر ، والصفحات مقدسة . ويجب أن يتلو من الكتاب ، ويتقلب الصفحات بين يديه ، فذلك أكثر بركة . وتلك حلاوة الايمان لأولئك الذين نشأوا على الايمان .

ويميضي الشيخ الجزار في التلاوة ، بعبارات عذبة ، من سجع الى سجع ، فهذا البراق الشريف الذي يمتطيه الرسول ( ص ) فينقله من مكة الى بيت المقدس ، حيث يربطه ، ومن ثم يعرج الى السموات العلى ، الى سدرة المنتهى ، اذ يغشى السدره ما يغشى ، الى الحضرة الالهية . الى اخر القصة التي تعود بالرسول ( ص ) من السماء الى الارض في بيت المقدس ثم الى مكة ، واهلها نيام ، ويحكىها لهم ، ويقولون له اضعاف احلام .

والقصة ، بالصيغة التي كان يتلوها الشيخ الجزار في ذلك العهد ، مليئة بالصور الرائعة عن الطيور العسجدية ذات المناقير الزبرجدية السابحة في الافلاك العلية . . او الحوار الرائع الذي دار بين الرسول ( ص ) والانبياء الذين التقى بهم في كل سماء . .